مقدمة

ضرورة قراءة النموذج الصيني في الإصلاح

إن نهضة الصين ليست نهضة دولة عادية أخرى، بل هي نهضة خُمس سكان العالم. إنها نهضة دولة متحضرة ذات تاريخ طويل وأرض شاسعة. ولقد حدثت العديد من المشكلات التي تواجهها الصين اليوم من قبل في فترات نشأة الغرب، فخلال الثورات الصناعية في أوروبا، كانت هناك فجوات هائلة بين الفقراء والأغنياء، وظلم اجتماعي وفساد مستفحل ونهب عنيف. ولكن بالمقارنة في الصين اليوم، كان بإمكان القوى الغربية حينها «حل» مشكلاتها بسهولة نسبية. فعلى سبيل المثال، كان بإمكان بريطانيا «تصدير» مجرميها إلى أستراليا، والعاطلين عن العمل إلى أفريقيا والمنشقين عن عقيدتها إلى أمريكا. كان يمكنها أن تضع كل «قواعد اللعبة» السياسية والاقتصادية العالمية، ولم يكن الأمر مهمًا كثيرًا، عندما كانت الفجوة بين الفقراء والأغنياء أكبر بعشرات المرات من تلك الفجوة الموجودة في الصين اليوم، حيث كانت ممارسة إشراك ملايين العبيد والعمال غير البارعين أمرًا قانونيًا.

بالمقارنة، تحتاج الصين اليوم إلى حل - على طريقتها الخاصة - لكل المشكلات التي أدت إليها عملية التحول الصناعي، والتحديث والتحولات الاجتماعية المصاحبة لهما. فعندما بدأت بريطانيا الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، كان عدد سكانها حوالي ١٠ ملايين نسمة، وهو عدد أقل من عدد سكان أية مدينة من مدن الصين الكبرى اليوم. وعندما كانت فرنسا في طريقها إلى التحول الصناعي في القرن التاسع عشر، كان عدد سكانها حوالي ٢٠ مليون نسمة، ولكن الصين - اليوم بالفعل - أمة يبلغ عدد سكانها أكثر من ١,٣ مليار نسمة، وتحقق ثورات صناعية واجتماعية على نطاق واسع، في ظل ظروف غير مواتية تمامًا. إنها تحتاج إلى حل كل مشكلاتها محليًا دون اللجوء إلى حروب، وهي لا تنهب دولاً أخرى.

وفي الواقع، فقد أدت نهضتها إلى تحقيق كثير من الفوائد المادية لكل من الصين والعالم بوجه عام، حيث أصبحت الدولة محرك النمو الاقتصادي في العالم. وانطلاقًا من وجهة النظر تلك، يعد نجاح الصين والنموذج الذي يدعم نجاحها أمرين عظيمين ولا يقدران بثمن. بفضل اجتهادهم وتضحيتهم وحكمتهم، أحدث الصينيون معجزة وكانوا روادًا بنموذج التنمية الخاص بهم، مما أدى إلى إعداد الصين للتعامل مع تحديات أخرى، في السنوات المقبلة وفتح آفاق واسعة لمستقبل الصين.

وهذا الكتاب يقدم وجها جديدا للصين في عصرها الجديد وسنواتها التي تنفح فيها على العالم، وهذا ما يطلق على الصين في عصر رئيسها الحالي «شي جين بينغ» الذي تولى الحكم عقب الدورة الثامنة عشر للحزب الشيوعي الصيني ودخل مع الصين عصرا جديدا، وهذا العصر أهم مميزاته هو الرئيس الصيني نفسه، وهو القائد الذي تدرج في الوظائف من سكرتير وحدة صغير للحزب في بلدية صغيرة حتى وصل إلى منصب حاكم مقاطعة سكانها عشرات الملايين، فهو رجل يمارس السياسية والإدارة منذ نعومة أظافره، كما أن خلفيته العائلية مميزة أيضا؛ فوالده من أفراد الرعيل الأول للحزب الشيوعي الصيني واحد قادتها والذي وقع عليه ظلم واضطهاد كبير خلال الثورة الثقافية الكبرى في ستينات القرن الماضي، لذلك نشأ حريصا أشد الحرص على أن يحافظ على السلام الاجتماعي ورخاء المجتمع، وهو رئيس درس العلوم المدنية والأدبية وحصل على الدكتوراه في القانون، ويعد الإنجاز الأكبر له بعد توليه الحكم في الصين هو إعادة ثقة الشعب - والشباب خاصة - بالحزب الشيوعي الصيني بعد أن اهتزت هذه الثقة قليلا في سنوات شهدت مظاهر فساد كبيرة، كما أن الرئيس الصيني صاحب رؤية واضحة لضرورة انفتاح الصين على العالم والإعلان عن نفسها كأمة حافظت على ثقافتها وحضارتها لمدة خمسة آلاف عام وعملت بجد لتصل للنهضة الاقتصادية التي تحققها الآن، وبعد إعلانه عن الأحكام الثمانية الجديدة المعنية بمحاربة الفساد وترشيد الإنفاق الحكومي ومحاسبة الفاسدين زادت ثقة الشعب الصيني في رئيسه وحزبه وأصبح يسمى «شي دا دا» وهو لقب باللهجة المحلية لمسقط رأس الرئيس يعني «الأب شي».

وهـذا الكتـاب الـذي يُقـدَّم لأول مـرة باللغـة العربيـة، يلخـص أفـكار ورؤيـة الصـين للإصـلاح الشـامل وهـو المنهـج الـذي طرحـه الرئيـس الصينـي، فالإصـلاح الشـامل يعنـي الإصـلاح مـن الجـذور والإصـلاح مـن القواعـد الصغيـرة ووحـدات الدولـة والمجتمـع، إصـلاح يشـمل كل مـا يهـم حيـاة المواطـن الصينـي مـن ظـروف معيشـية وخدمـات أساسـية ودخـل عـادل ووسـائل نقـل فائقـة وحكومـة رشـيدة تخـدم ذلـك وتحققـه ودولـة قويـة يفخـر بهـا. والكتـاب مـن تحريـر وترجمـة لجنـة الترجمـة والتحريـر باللجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي وهـي أعلـى لجنـة للتأليـف في الصـين، والمحتـوى يتضمـن مقتطفـات مـن خطـب وحـوارات وتعليمـات الرئيـس الصينـي، وهـذا المحتـوى يمثـل تلخيصـا وافيـا لمـا تنتهجـه الصـين الحاليـة وخطتهـا في تنفيـذ إصـلاح «شـامل»، وتم جمـع هـذه الأفـكار والكلمـات التـي يتضمنهـا الكتـاب مـن تفريـغ لـكل مـا قالـه الرئيـس الصينـي خـلال ثـلاث سـنوات وانتقـاء مـا يخـص الإصـلاح الشـامل مـن بينـه، بعضـه في اجتماعـات علنيـة وبعضـه في اجتماعـات مغلقـة، تنشـر لأول مـرة.

وتتمثـل أهميـة أفـكار الرئيـس الصينـي في أنهـا لا تمثلـه كشـخص فقـط، ولكـن تمثـل الدولـة الصينيـة بأكملهـا، فنظـام الحكـم في الصـين يختلـف عـن أي دولـة في العالـم، حيـث أنـه نظـام حكـم جماعـي يتبـع نظـام الانتخـاب والتكليـف، ويمكـن أن نقـول بـأن هنـاك سـبعة هـم أعضـاء اللجنـة الدائمـة باللجنـة المركزيـة للحـزب هـم مـن يحكمـون الصـين، ويرأسـهم «شـي جـين بينـغ»، ولكـن ليـس لـه حـق إقالتهـم إلا بقـرار مـن اللجنـة المركزيـة مجتمعـة. لذلـك فمـا يقولـه ويطرحـه الرئيـس هـي أفـكار اللجنـة المركزيـة للحـزب وأفـكار الحكومـة الصينيـة التـي هـي جـزء مـن الحـزب، والرئيـس الصينـي يتميـز بأنـه دائـم التعلـم وتلقـي المحاضـرات الدائمـة مـن الخبـراء والباحثـين ليكـون علـى اطـلاع دائـم بمجريـات الأمـور.

وأعتقـد أن أهميـة هـذا الكتـاب تكمـن في محوريـن أولهـا أنـه الأقـرب بـين مـا نشـر باللغـة العربيـة مـن دوائـر القـرار بالصـين، لذلـك فهـو الأكثـر مصداقيـة واختصـارا ومباشـرة، لذلـك فهـو مفيـد لـكل مـن يريـد أن يطالـع التجربـة الصينيـة عـن قـرب ويكتشـف سـر نجاحهـا.

وثانيهما انه يشرح التجربة الصينية بكلمات قليلة وأسلوب سرد هو عبارة عن أفكار رئيس الصين وهو ما يعد مرجعا سياسيا مفيدا جدا لكل المختصين والباحثين وأعتقد انه الأول من نوعه في هذا المجال.

أؤمن تماما أن في التجربة الصينية ما يستحق الدراسة والتعلم والنقل للوطن العربي، وخاصة مصرنا الحبيبة، خاصة مع تشابه الظروف التاريخية بين البلدين، فمصر نالت حريتها وتأسست جمهوريتها في أوائل خمسينات القرن الماضي وكذلك هي الصين، ومصر تحتفل كل عام في أوائل أكتوبر بعيدها الوطني ذكر النصر والكرامة وكذلك الصين التي تحتفل في أول أكتوبر من كل عام بعيد تأسيها، ولعل الكثيرون لا يعلمون أن مصر كانت نموذجا للتقدم بالنسبة للصين في تسعينات القرن الماضي، وقام الكثير من الباحثين الصينين بدراسة التحول الاقتصادي في مصر خلال تسعينات القرن الماضي، ومع الطفرة الصينية الكبيرة والنهضة الصينية العظيمة أصبح واجب علينا أن نقوم الآن بدراسة مستفيضة للنموذج الصيني والتعرف على خططه في تحقيق الإصلاح والتنمية الشاملة، وأتمنى أن يقوم هذا الكتاب بالمساعدة في هذا الأمر وفتح أفق جديدة لكل مهتم بنهضة الوطن.

أحمد السعيد – بكين

٢٠١٦

obeikandl.com